

تمہارا

شاع في أوساط العامة ؛ بل ربما في أوساط بعض المتخصصين —
أيضًا — النفورُ من فكرة وجود المبالغة في القرآن الكريم ؛ بل التحفظ من
وجودها في اللُّغة ذاتها ... ذلك لأنها ارتبطت في أذهان الكثيرين — قديمًا
وحديثًا — بالكذب ! مما حدا بهم إلى نفي المبالغة قولاً واحداً إيثاراً
للصدق والاقتصاد في المعنى ظناً منهم أنها ملفوفة بالكذب والاستحالة فهي
في نظرهم كما قال العلوي (ت ٧٤٩هـ) { غير معدودة من محاسن
الكلام ، ولا من جملة فضائله ، وحبّتهم على هذا هو أن خير الكلام ما
خرج مخرج الحق وجاء على منهاج الصدق من غير إفراط ولا تفريط ،
والمبالغة لا تخلو عن ذلك كما جاء في أشعار المتأخرين من الإغراق
والغلو ، وجه آخر وهو أن المبالغة لا يكاد يستعملها إلا من عجز عن
استعمال المألوف والاختراع الجاري على الأساليب المعهودة ، فلا جرم عمد
إلى المبالغة لسد خلل بلادته بما يُظهر فيه من التهويل ولهذا تراها مُخرجةً
للكلام إلى حَدِّ الاستحالة } (١) .

وعلى النقيض من هذا ذهب فريق إلى { أن المبالغة من أجل المقاصد
في الفصاحة ، وأعظمها في البراعة ، ومن أجلها نشأت المحاسن في المعاني
الشعرية ، وحبّتهم على هذا أن خير الشعر أكذبه وأفضل الكلام ما بولغ
فيه ، ولهذا فإنك ترى الكلام إذا خلا عنها وبَعُد عن استعمالها كان ركيكا
نازلاً قدره ، ومتى خلط بها ظهرت فصاحته وراق رونقه ، وحسن بهائمه
وبريقه } (٢) .

وتوسَّط آخرون فقالوا : { إن المبالغة فنُّ من فنون الكلام ، ونوعٌ
من محاسنه ، ولا شك أن للكلام بها فضل بهاء ، وجودة رونق وصفاء لا
يخفى على من كان له أدنى ذوق ، ولكن ليس على جهة الإطلاق ؛ فإن
الصدق فضله ” لا يُجدد ، وحسنه لا يُنكر فمهما كانت المبالغة جارية على
جهة الاعتدال بالصدق فهي حسنة ” جميلة ” ، ومهما كانت جارية

(١) الطراز — يحيى بن حمزة العلوي — تحقيق محمد عبد السلام شاهين — دار الكتب العلمية ، بيروت
، ط الأولى ١٩٩٥م / ٤٥٦ ، وانظر العمدة لابن رشيق طبعة محمد محي الدين عبد الحميد
. ٥٣ / ٢

(٢) الطراز / ٤٥٦

على جهة الغلو والإغراق فهي مذمومة { (١)

فاستوت بذلك مذاهب ثلاثة في قبول المبالغة ورفضها في تراثنا البلاغي ذكرها العلوي وغيره ، بيد أن الشائع اليوم بين الناس المذهب الأول القائل بالرفض ، للعلّة نفسها أن المبالغة مقرونة بالكذب والغلو والإغراق أبداً ولهذا فهي معيبة ” مذمومة .

ومن أجل هذا كان من الأمور الحتمية ، بل من أوجب أهداف هذا البحث إزالة هذا الوهم ، وكشف هذا الغموض الذي تلبس بالمبالغة ، وتجليتها فناً بلاغياً منوطاً بكل فروع البلاغة وألوانها ، فلا تخلو صورة بيانية منها ، ولا أسلوب أدبي رقرق إلا امتزجت بها ، ملفوفة في كل ذلك بثوب من جمال التخيل ، وبراعة التصوير ، وتتأهي عمق البعد النفسي والوجداني .

ولا ريب أن المبالغة – شأنها في ذلك شأن كثير من الفنون البلاغية – شاب مصطلحاتها غير قليل من الاضطراب والتداخل ، فترادف بعضها ، وتضاد بعضها الآخر وكلما جاء متأخر ” زاد مصطلحاً أو غير من مفهوم مصطلح .

ومن ثمّ كان حرياً بالبحث أن يوضح أولاً مفهوم هذا المصطلح ” المبالغة ” وتحريره وتنقيته ، ثم النظر – ثانياً – في كم المصطلحات التي تفرّعت منه والحكم في النهاية أيها يعدّ من فنية المبالغة ، وأيها بعيد عن هذه الفنية .

ثمّ أعرجُ على القضية الأم التي عني البحث بجلائها والتدليل عليها ألا وهي ” المبالغة بين الصدق والكذب ” ، إذ إن القول بأن المبالغة رديفة الكذب كاد أن يفسد الذوق الأدبي كلّهُ ، ويحرم البلاغة من ” البلاغة ” إذ ما الذي يبقى من البلاغة إن رُفضت المبالغة في اللغة أو في القرآن الكريم؟! فإنك إن رُمّت الحقيقة وجدت المبالغة ماثلةً أمامك في جميع الأعمال الفنية واللغوية : في الصيغة : ” فعّال – مفعال – فُعول .. الخ وفي الصورة الفنية : في التشبيه والكناية والاستعارة والمجاز المرسل والمجاز العقلي وفي التراكيب الفنية في الاستفهام والأمر والنهي

والتمني ؛ بل في بعض الأساليب الخبرية أيضاً ، وفي الإعجاز في أسماء الله تعالى وفي حقيقة النفس والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، والإعجاز الفقهي .. الخ .

باختصار شديد : المبالغة : هي روح البلاغة وجوهرها ، وبدونها تُصبح البلاغة جسداً ميتاً لا حراك له ، بلا غرابةٍ أو طرافةٍ أو ابتكار بعيداً عن التصور السامق ، والتّمردُ الدلالي التّلافت ، النَّائي عن المباشرة والإلف والاعتیاد .

فما من شك أن المبالغة — متى اتّسحت بالصدق الفني — أحدثت في الصورة مزجاً لازباً بين الخيال والوجدان ، وحركة متموجة حية بين الواقع المحدود المرسوم وبين العالم الأكبر ، اللامحدود .. اللامتناهي .

وجملة القول أريد أن أعيد لمصطلح " المبالغة " معناه الفني الفني الذي تاه وسط معاني التهويم والتهويل والتهوين ، وقصر قصراً على هذا ، مفتقداً الدلالة الحيوية التي نبحث من خلالها عن جوهر وصول المعنى إلى أقصى غاياته السامقة الخلاقة ، حينئذ نرى الصورة لا تفارق الحسّ المنشود.. نرى الخيال لا يجافي الصدق الفني .. ساعتها ترى مشهداً صادقاً ارتبط فيه الواقع بالخيال ، والقلبُ بالعقل في نسيجٍ صحيحٍ مقبولٍ فنياً بعيداً عن مناط الغلو ، ودائرة المغالاة .

ومن هنا يجمل بنا أن نتناول في هذا التمهيدي النقاط الآتية :

- (١) : مصطلح المبالغة .
- (٢) : مفهوم المبالغة عند القدماء وما تعلق بها من مصطلحات
- (٣) : المبالغة بين الصدق والكذب .
- (٤) : المبالغة بين المستحيل والممتنع والممكن .
- (٥) : تفرّد مبالغات القرآن .

(١) مصطلح المبالغة

تدور المادة اللغوية للمبالغة حول بلوغ المعنى القصد ، وزيادته ، وتكثيره ، وشدته ، والوصول به إلى أقصى غاية ممكنة قال ابن منظور : { بالغ يبالغ مبالغة وبلاغاً إذا اجتهد في الأمر ... وشيء بالغ أي جَيِّدٌ وقد بلغ في الجودة مبلغاً ... والمبالغة أن تبلغ في الأمر جهدك } (١) .

وفي القاموس المحيط : { و البليغين في قول عائشة رضي الله عنها لعلي رضي الله تعالى عنه بلغت منا البليغين ، ويضم أوله : الداهية ، أرادت بَلَّغْتَ منا كل مَبْلَغ .. وبلغ الفارس تبليغاً مَدَّ يده بعنان فرسه ليزيد في جريه وتبليغ بكذا اكتفى به ... وبالع في أمري لم يُقَصِّر } (٢)

وتعني " المبالغة " في الاصطلاح البلاغي { الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياته } قال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥) : (" المبالغة " أن تبلغ أقصى غاياته وأبعد نهاياته ولا تقتصر في العبارة عنه أو في منازله وأقرب مراتبه) (٣) .

وقال السيوطي في الإتقان : { المبالغة : أن يذكر المتكلم وصفاً فيزيد فيه حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده } (٤) .

ومن هنا فإن حقيقة " المبالغة " قائمة على هاتين الداليتين : الدلالة اللغوية وهي منوطة بالزيادة بما يكتنفها من الشدة والقوة والكثرة ، وهذا هو الغالب في فهم المبالغة عند القدماء ، ولذا أدرجوا تحتها صيغ المبالغة : (مفعال — فَعَال — فَعُول) وبعض الأدوات مثل كاد إلخ .

(١) لسان العرب مادة ب ل غ وانظر تاج العروس للإمام اللغوي . السيد محمد مرتضى الزبيدي ، المجلد السادس ، الناشر دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي ، مادة (ب ل غ) .

(٢) القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، الجزء الثالث ، الطبعة الثانية — مطبعة مصطفى البابي الحلبي مادة (ب ل غ) .

(٣) الصناعيتين ، أبو هلال العسكري — تحقيق د . مفيد قميحة — دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان — ط الثانية ١٩٨٩م / ٤٠٣ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة التراث ، القاهرة ٢٨٢/٣ .

والدلالة الفنية وهي قائمة على بلوغ المعنى أقصى غاية ممكنة ، بحيث لا يكون بعد ذلك إلا الغلو المذموم ، والشطط الناتئ عن الصواب .

وهذا الشق الفني هو ما أردت أن أتوسع فيه ، وأكثر في حوله البحث ، فأكشف عن دروبه ومراميه ، إذ هو الحق بالفن ، وأدخل في دائرة البلاغة .

بيد أنه ينبغي مراعاة أن الزيادة المقترنة بالمبالغة اللغوية مشروطة بأن تكون لصيقة بالموقف ، مراعيه لمقتضى الحال ، وهي بهذا المفهوم تتدرج تحت مفهوم البلاغة العام في أوجز صورته " مراعاة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " فيندفع بهذا الظن أن هذه الزيادة يمكن الاستغناء عنها ؛ لأنها الزيادة بالنسبة لما هو دونها من طرائق التعبير بغير أسلوب المبالغة وطرائقها ، أما المبالغة الفنية فهي مشروطة بإقناع المتلقي وبلوغ الغاية في تصوير المشاعر والاحاسيس وانظر في ذلك - مثلاً - قول سُكَيْنَةَ بنت الحسين : " ما لبست ابنتي الدرُّ إلا لتفضحه " (١) .

ستجد " المبالغة " قد انتقلت بك إلى أقصى ما تطلبه امرأة في وصف جمالها فمن المعروف أن المرأة تزدانُ بالدرُّ ، واللؤلؤ ، فتزداد جمالاً وهذا معنى مألوف مشهور . فإن ارتقت درجة كانت غانية (٢) أي استغنت بجمالها عن الزينة ، فلم تعد بحاجة إليها .

فإن بلغت الغاية في وصف جمالها فلن تجد خيراً مما قالتها سُكَيْنَةَ إذ يمثل الدرُّ - الذي هو موطن الزينة ومحل التجميل - أمراً رديئاً بل مفضوحاً ؛ لأن جمال ابنتها الصارخ بلغ من الحُسن مبلغه حتى طغى على جمال الدرُّ نفسه فأضحى ممسوخاً مردولاً وهذا يمثل أقصى غاية يمكن أن تصل إليها امرأة في وصف جمالها وذلك هو الدور المنوط بالمبالغة الفنية المقبولة بحيث لا تعطي قدراً لمستزيد بعد ذلك ، فلا يكون هناك بعد ذلك المعنى إلا الغلو الممجوج والمبالغة المرفوضة .

(١) السديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤) - تحقيق د . أحمد أحمد بدوي و د . حامد عبد المحيد ، مراجعة الأستاذ إبراهيم مصطفى ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م / ١٠٦ .

(٢) قال ابن منظور : { الغانية : التي غنيت بصننها وجمالها عن الحلئ } مادة { ع . ن . ا } .

أما المبالغة القرآنية فحدثت ولا حرج إذ بلغت كلها حدَّ الكمال ، وانظر —
مثلاً — إلى قوله تعالى : ﴿ وَأُنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى
الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ (١) .

فقد سعدت القلوب من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر وذلك
لرهبنة يوم القيامة لاسيما للظالمين (٢) ففاق تعبير القرآن كل تصوّر لإبراز
معاني الخوف والفرع ، فالقلب لم يرتجف أو يضطرب بل قد انخلع من
مكانه ووصل إلى الحناجر ، وهذا التعبير القرآني بهذه القوة أوقف المفسرين
لتبيين المراد ، هل هذا حقيقة أم مجاز؟! ويبقى السياق في إعجازه يحمل
كلتا الداليتين ، وهما على وجه سواء يُنبئان عن رونق القرآن وبلوغه منتهى
الجمال وغاية التصوير .

(١) غافر / ١٨ وهذا الموضع قريب من موضع آية الأحزاب " وبلغت القلوب الحناجر " / ١٠
(٢) انظر كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي — دار الكتاب العربي بيروت ،
ط ٤ ، ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م ٤ / ٤ .

(٢) مفهوم المبالغة عند القدماء وما تعلق بها من مصطلحات

تناول البلاغيون " المبالغة " تحت اسم " الإفراط في الصفة " كما عند ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) ، وتردد من قبل عند ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، وثلث (ت ٢٩١ هـ) ، وهو يعني عندهم : البلوغ إلى أقصى غاية ، أو الغرابة والخروج عن المألوف .

فلما جاء قدامة (ت ٣٣٧ هـ) كان أول من أطلق هذا المصطلح " المبالغة " واستقر العلماء من بعده على هذه التسمية ، وهي تعني عنده : { أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعره لو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده ، فلا يقف حتى يزيد في معنى ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد له } (١) .

وهو يجعلها في مرتبة أقل من الغلو الذي يُبنى على الإفراط الشديد لكنه - على أية حال - يضعهما في دائرة واحدة من القبول والاستحسان .

وجاء البلاغيون من بعده وفرعوا منها : التبليغ والإغراق والإيغال .. إلخ ولعل من أبرز الذين جاءوا من بعده ويمكن الوقوف عندهم :

أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤ هـ) ، والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢ هـ) ، والشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) ، وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) ، وابن سنان (ت ٤٦٦ هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ، ومحمد بن علي الجرجاني (ت ٧٢٩ هـ) ، والعلوي (ت ٧٤٩ هـ) .

١- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦ هـ) .

تعني المبالغة عنده { الدلالة على كبر المعنى على جهة التعبير عن أصل اللغة لتلك الإبانة } (٢) والتغيير عن أصل اللغة للإبانة إما أن يكون عن طريق الصيغة الصرفية مثل فعّال - مفعّال - فعول .. إلخ وإما أن يكون عبر الصياغة وله عدة طرق :

(١) نقد الشعر - لأبي الفرج قدامة بن جعفر - تحقيق كمال مصطفى - الناشر : مكتبة الخانجي ط الثالثة ١٩٧٩م / ١٤١

(٢) النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل) - تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام - دار المعارف بمصر - ط الثانية ١٣٨٧م - ١٩٦٨م / ١٠٤ .

(١) أن توضع الصيغة العامة موضع الخاصّة ، كقوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) .

(٢) إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صُفًّا صَفًّا ﴾ (٢) فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئاً له على المبالغة في الكلام .

(٣) إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَأَ الْجِمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (٣) .

(٤) إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل ، والمظاهرة في الحجاج فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ” فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ (٥) .

(٥) حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى : ﴿ ص~ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (٦) كأنه قيل : لجاؤ الحق ، أو لعظم الأمر ، أو لجاؤ بالصدق . كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التّفخيم ، والحذف أبلغ من الذكر ؛ لأن الذكر يقتصر على وجه ، والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التّعظيم لما تضمنه من التّفخيم (٧) .

(١) الأنعام/ ١٠٢

(٢) القجر/ ٢٢

(٣) الأعراف/ ٤٠

(٤) سبا/ ٢٤

(٥) الزخرف/ ٨١

(٦) ص~ ١

(٧) انظر النكت / ١٠٤ - ١٠٦

٢- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) .

يُحْكَمُ القاضي الجرجاني نونَ المتلقي ودربته في قضية المبالغة والحكم على سلامتها وقبولها إذ يقول : { فأما الإفراط فمذهب ” عام في المُحدثين ، وموجود ” كثير ” في الأوائل ، والناس فيه مختلفون ، فمستحسن قابل ، ومستقبح راد ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد ، والاستيفاء ، وسلم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشعبة من الإغراق والباب واحد ” ، ولكن له درَج ” ومراتب } (١) .

ولعلنا نلاحظ من النص تقارب المبالغة والغلو والإفراط والإغراق ، وكأنه يشير إلى أنه ليس مهماً التفريق بين هذه المصطلحات وإنما المهم المضمون وانسجام المتلقي واقتناعه بالعمل الأدبي ذاته .

كذلك يشير إلى نقطة غاية في الأهمية وهي منوطة بالكلام السابق ألا وهي: اختلاف المصطلحات نتج عن اختلاف درجة المبالغة .

٣- الشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) .

تعني " المبالغة " عنده الكثرة والشدة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (٢) أن يكون معنى القول : المبالغة في وصف الإنسان بكثرة العجلة ، وأنه شديد الاستعجال لما يؤثره من الأمور ، لهج ” باستدناء ما يجلب إليه نفعاً ، أو يدفع عنه ضرراً ، ولهم عادة في استعمال مثل هذه اللفظة عند المبالغة ، كقولهم لمن يصفونه بكثرة النوم : ما خُلِّقْتَ إلا من نوم ، وما خُلِّقَ فلان إلا من شرٍ ، إذا أرادوا كثرة وقوع الشر منه ، وربما قالوا : ما أنت إلا أكِلٌ ” وشَرِبٌ ” ، وما أشبه ذلك } (٣) .

(١) الوساطة بين المتبني وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي — مطبعة عيسى الياباني الحلبي وشركاه — بلا تاريخ / ٤٢٠

(٢) الأنبياء / ٣٧

(٣) أمالي المرتضى — للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — دار إحياء الكتب العربية : عيسى الياباني الحلبي وشركاه ط الأولى ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م ٤٦٥/١

كما تعني المبالغة عنده عظم الأمر ^(١) والمُتدَّة ^(٢) .

٤- ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) .

أما " ابن رشيق " فإنه ينظر إلى " المبالغة " نظرة فيها شمول ، إذ يعرض ضروب الناس المختلفة حول " المبالغة " قبولاً ورفضاً فيقول : { هي ضروب " كثيرة ، والناس فيها مختلفون : منهم من يؤثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويرأها الغاية القصوى في الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان وهو القائل : أشعر الناس من استجيد كذبه وضحك من رديئه } ^(٣) وهذا القسم الأول ، وثمَّ صنف آخر : من ينكرها ويعيبها ، ويرأها هُجْنَةً في الكلام لأنها { ربما أحوالت المعنى ، ولبَّسته على السامع ، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره ، لأنها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ، لأنه ينبغي أن يكون من أهم أغراض الشعر والمتكلم أيضاً الإبانة والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ؛ فإن العرب إنما فضَّلت بالبيان والفصاحة ، وحلا منطقتها في الصدور ، وقبلته النفوس لأساليب حسنة وإشارات لطيفة ، تكسبه بياناً وتصوره في القلوب تصويراً ، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء ، وقد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قرَّبوه من فهم السامع بالاستعارات والمجازات التي استعملوها } ^(٤) .

وهو يرى أن الذين أنكروها إنما فعلوا ذلك لإدخالهم الغلو فيها ، بينما " المبالغة " عنده ليست هي " الغلو " وإنما الغلو درجة من درجاتها وقد اقترن عنده " بالإفراط " و " الإغراق " ^(٥) يقول : { فأمَّا الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه مما بينت ، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيب الاستعارة ، إلى كثيرٍ من محاسن الكلام } ^(٦) .

(١) انظر الأمالي ١ / ٥٠-٥١

(٢) انظر الأمالي ١ / ٣٢٩

(٣) العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني - تحقيق محمد محي الدين عيد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان - ط الخامسة ١٩٨١م ٢ / ٥٣

(٤) العمدة ٢ / ٥٣

(٥) انظر العمدة ٢ / ٦٠

(٦) نفسه ٢ / ٥٥

ومن هنا فالغلوُّ عنده قسمان : الأول ممدوح وهو من أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق حيث يبلغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء والآخر مذموم ساعة أن يحيد الشاعر عن الإصابة ويوغل في الإحالة الفجّة كقول أبي نواس :

وَأَخَفَتِ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ (١) .

٥- ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) .

إذا كنا قد رأينا " ابن رشيّق " يفرّق بين " المبالغة " و " الغلو " في أنه يجعل " الغلو " درجةً من درجات المبالغة ، فإننا هنا نجد " ابن سنان " يُسوِّي بينهما ، ويستخدّم المبالغة بمعنى الغلو ، فهما مترادفان ، وفيهما الممدوح والمذموم { أما المبالغة في المعنى والغلو : فإن الناس مختلفون في حمد الغلو و ذمه ، فمنهم من يختاره ويقول أحسن للشعر أكذبه ... وأما استعمال الغلو الخارج إلى الإحالة في النثر قليل ، وأكثر ما يستعمل فيه المبالغة التي تقارب الحقيقة ، كقول بعضهم : لهم جود كرام اتسعت أحوالها ، وبأس ليوث تتبّعها أشبالها ، وهم ملوك انفسحت أمالها ، وفخر ضميم شرفّت أعمامها وأحوالها . فبالغ لما جعل لهم جود الكرام مع اتساع الحال ، وبأس اللئيوث مع اتباع الأشبال ، وكذلك ما بعده من الكلام ، ومن المبالغة قول النابغة الذبياني :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ

وإنما كان هذا الاستثناء من المبالغة في المدح ؛ لأنه قد دلّ به على أنه لو كان فيهم عيبٌ " غيرُه لذكّره ، وأنه لم يقصد إلا وصفهم بما فيهم على الحقيقة { (٢) .

(١) نفسه ٢ / ٦٢

(٢) سر الفصاحة - ابن سنان الخفاجي - تحقّق على فوده - مكتبة الخانجي ، القاهرة ط الثالثة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م / ٢٥٦ ، ٢٥٧

٦- عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) .

يَعْدُ " عبد القاهر " أكثر البلاغيين الذين مزجوا البلاغة بكل فنون البيان ، وعدَّ جمال الصورة مرهوناً ببلوغ المنتهى فيها ، نجد ذلك في التشبيه والاستعارة والكناية ، فهو يتكلم عن التشبيه بقوله : { وحكم هذا في أن الفرع لا يخرج عن كونه فرعاً على الحقيقة حكم ما طريق التشبيه فيه المبالغة من المشاهدات والمحسوسات كقولك " هو كحنك الغراب في السواد . لما هو دونه فيه } (١) .

ثم تراه يتحدث عن الاستعارة المفيدة في كونها قائمة على الإدعاء ، مقادها المبالغة في الوصف : { ومثاله قولنا : " رأيت أسداً " ، وأنت تعني رجلاً شجاعاً ، و " بحرًا " تريد رجلاً جواداً = و " بدرًا " و " شمسًا " تريد إنساناً مضيء الوجه متهللاً = و " مللت سيفاً على العدو " تريد رجلاً ماضياً في نصرتك ، أو رأياً نافذاً وما شاكل ذلك ، فقد استعرت اسم الأسد للرجل ، ومعلوم " أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك ، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة } (٢) .

ثم يزيد هذا المعنى بقوله : { فقولك رأيت أسداً تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة ، أمر يستوي العربي والعجمي ، ونجده في كل جيل ، وتسمعه من كل قبيل } (٣) .

وفي حديثه عن إسقاط ذكر المشبه في الاستعارة يقول : { كما مضى من قولك : " رأيت أسداً " تريد رجلاً شجاعاً = و " وردتُ بحرًا زاخراً " تريد رجلاً كثير الجود فائض الكف = و " أبديت نوراً " تريد علماً وما شاكل ذلك . فاسم الذي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به ، لقصدك أن تبالغ ، فتضع اللفظ بحيث يُخيّل أن معك نفس الأسد والبحر والنور ، كي تقوّي أمر المشابهة وتشدّده } (٤) .

(١) أسرار البلاغة - تحقيق محمود محمد شاكر - دار المدني بجدّة - ط الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م ٢٣٥/ .

(٢) نفسه ٣٣/ .

(٣) نفسه ٣٤/ .

(٤) نفسه ٢٤٢/ .

وفي إطار الحديث عن مزية الكناية وترجيحها على الحقيقة يقول : { اعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبت لها هذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدعى لها = في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها . تفسير هذا : أن ليس المعنى إذا قلنا : " إن الكناية أبلغ من التصريح " أنك لما كُنيت عن المعنى زدت في ذاته ، بل المعنى أنك زدت في إثباته ، فجعلته أبلغ وأكد وأشد ، فليست المزية في قولهم : " جمُّ الرماد " ، أنه دلَّ على قرى أكثر ، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ ، وأوجبه إيجاباً هو أشدُّ ، وأدعيتَه دَعوى أنت بها أنطق ، وبصحتها أوثق { (١) .

ثم تراه يمزج - أيضاً - المبالغة بالأساليب ، كما فعل في التعليل والحذف والتخصيص والقصر بتعريف الخبر والتقديم والطباق ... إلخ ، والمبالغة - عنده - قائمة على التجوز وبلوغ الغاية وحد الكمال ، هذا هو مضمون استخدامه للفظ المبالغة ، وإن لم يضع لها تعريفاً اصطلاحياً محدداً ، فهو يقول بصدد الحديث عن الخبر المعرفة : { أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة ، وذلك قولك : " زيد " هو الجواد " و " عمرو هو الشجاع " تريد أنه الكامل إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه ، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال { (٢) .

ومن هنا فإن " عبد القاهر " عدَّ براعة الصورة ، وجمال الأسلوب منوطاً بالمبالغة بالخروج عن الحقيقة ، حيث الاعتیاد والإلف إلى رحابة التصوير والتخييل ، ويستتبط من هذا المضمون أن الرامي إلى تهوين المبالغة ، والسعي إلى حذفها والاستغناء عنها ، إنما يرمي إلى سلب البلاغة نضارتها وحيويتها ، وحرمان الأسلوب القرآني من أداة بلاغية مطروحة لتفسير كتاب الله وتوضيح معانيه وكشف مراميهِ .

(١) دلائل الإعجاز - تحقيق محمود محمد شاكر - مطبعة المدني ، دار المدني بجدة - مكتبة الخانجي ط الثالثة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م / ٧١ .

(٢) نفسه / ١٧٩ .

٧- محمد بن علي الجرجاني (ت ٧٢٩هـ) :

لم يُعرّف " المبالغة " لكنه شرع في تفريع المصطلحات منها ، فتكلم عن التبليغ والإغراق والغلو ، وهو متأثر في هذا ببدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) في كتابه " المصباح " ^(١) يبيّن أنه زاد عليه بضرب الأمثلة لكل نوع بشيء من التفصيل ، فهو يقول تحت عنوان : إشارة إلى المبالغة { الوصف البالغ فيه : إما أن يكون ممكناً أو لا .

والأول إن كان ممكناً في العادة ، سُمّي : التبليغ ، كقول امرئ القيس :

فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ دِرَاكًا وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ

وصف فرسه بأنه أدرك ثوراً ونعجة وحشيين في مضمار واحد ، ولم يعرق وهذا ممكن عادةً وعقلاً .

وإن لم يمكن في العادة وأمكن في العقل ، سُمي بالإغراق ، كقوله :

وَنُكِرْمُ جَارَنَا مَادَامَ فِينَا وَنَتَّبِعُهُ الْكِرَامَةَ حَيْثُ مَا لَأ

والثاني : يسمى بالغلو ، كقول أبي الطيب :

عَقَدَتْ سِنَابُكُهَا عَثِيرًا لَوْ تَبَتَّغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَأَمَكْنَا

وقول أبي نواس :

وَأَخَفَّتْ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النَّطْفُ اللَّيِّ لَمْ تُخَلِّقِ

وقول آخر :

أَسْكُرُ بِالْأَمْسِ إِنْ عَزَمْتُ عَلَى الشِّئِ رَبِّ غَدَاً ، وَإِنَّ ذَا مِنْ الْعَجَبِ

بالغ الأول في شدة العُبار ، ويبلغ الثاني في شدة الإخافة ، ويبلغ الثالث في

(١) انظر : المصباح في المعاني والبيان والبدیع - لبدر الدين بن مالك - تحقيق د . حسنى عبد الجليل يوسف - مكتبة الآداب ١٩٨٩م / ٢٢٠ - ٢٣٠

شدة الإسكار ، بأوصاف ممتعة عادة وعقلا . وقد يخرج عن حد الغلو :
إما بلفظة "كاد" ، كقوله تعالى : ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ﴾ (١) وقول الشاعر في وصف فرسه :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَنِ ظِلِّهِ
لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِـ

أو بنوع من التخيل ، كقول القاضي الأرجاني يصف طول ليلته :
يُخِيلُ لِي أَنْ سُمِّرَ الشَّهْبُ فِي الدُّجَى وَشُدَّتْ بِأَهْدَابِي إِلَيْهِنَّ أُجْفَانِي { (٢) .

ويمكن توضيح هذا التقسيم بالرسم التوضيحي الآتي في الصفحة التالية :

(١) النور / ٣٥

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة - لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني ت ٨٧٢٩ - تحقيق
د . عبد القادر حسين - مكتبة الآداب - ١٩٩٧م / ٢٥٣ ، ٢٥٤

المبالغة

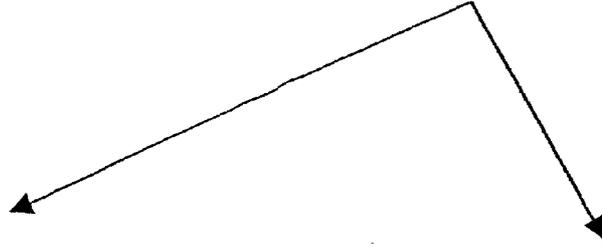


غير ممكن (الغلو)

مثل : واخفت أهل الشرك حتى إنه

لتخافك النطف التي لم تُخلو

ممكن



في العقل (الإغراق)

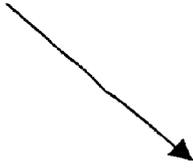
مثل : ونكرم جارنا ما دام فينا

ونتبعه الكرامة حيث مالا

في العادة (التبليغ)

مثل : فعادى عداً بين ثور ونعجة

دراكاً ولم يُنضح بماء فيُغسل



وقد يخرج عن حدّ الغلو

بنوع من التخيل

مثل : يخيل لي أن سمرّ الشهب في الدجر

وُشدّت بأهدابي إليهن أجفا

بلفظة " يكاد "

﴿ يكاد زيتها يضيء ﴾

وبين " أنه يجعل التقسيمات جميعها منبثقة من المبالغة ، والغلو عنده ليس مذمومًا ، بل يُمثَّلُ درجةً من الدرجات وهكذا سائر المصطلحات إنما تتباين في الدرجة ، لا في قبولها أو رفضها .. تتباين في إمكانها في العادة أو في العقل أو في عدم إمكانها قطعياً ، وسار على دربه من بعده الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) في " الإيضاح " (١) .

٨- يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٩هـ)

قدّم " العلوي " في " الطراز " صورةً شاملةً عن المبالغة مع تحليل دقيق لبعض النماذج التي ساقها أمثلة لتقسيماته ، مع زيادة بعض المصطلحات كالإيغال و " التوجيه " . فهو يعرف المبالغة بقوله {هي مصدر من قولك بالغت في الشيء مبالغة إذا بلغت أقصى الغرض منه ، وفي مصطلح علماء البيان هي أن تثبت للشيء وصفاً من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره ، إما على جهة الإمكان أو التعذر ، أو الاستحالة} (٢) فهي - في نظره - تعتمد الزيادة أبداً ، سواء أكانت على جهة الإمكان ، أي على جهة صحة الوقوع ، أم على جهة التعذر ، أي تعذر حدوث الصفة مع إمكان وقوعها ، أم على جهة الاستحالة أي على جهة ما لا يمكن وقوعه ، كل ذلك معدود في " المبالغة " عنده (٣) .

وسبق أن عرضت له في أول التمهيد ذكره لمذاهب الناس حيال المبالغة على ثلاثة مذاهب (٤) .

(١) انظر الإيضاح - الخطيب القزويني - تحقيق د . عبد القادر حسين - مكتبة الآداب - ط الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م / ٤١٢-٤١٧

(٢) الطراز - يحيى بن حمزة العلوي ت ٧٤٩هـ - تحقيق محمد عبد السلام شاهين - دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان - ط الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م / ٤٥٥ .

(٣) انظر الطراز / ٤٥٥

(٤) انظر ص ٢٤ .

طرق المبالغة عنده :

خلاصة ما يذكر من ذلك طرق ثلاث :

الطريقة الأولى

أن يستعمل اللفظ في غير ما وضع له في الأصل إما على جهة الاستعارة ، أو الكناية أو التمثيل ، على ما سبق تقريره في الأنواع المجازية ، فإنه إنما استعمل فيها على تلك الأوجه من أجل المبالغة في معناها ، فإن قولنا مررت بالرجل الأسد يخالف قولنا مررت بالرجل الشجاع البالغ في الشجاعة كل مبلغ ، وما ذاك إلا لما فيه من المبالغة بكونه مجازاً ، وكما قال بعض الشعراء في وصف القرطاس :

وَيَرَى الصَّحِيفَةَ جَلْبَةً وَجِيَادَهَا أَقْلَامَهُ وَصَرِيرَهُنَّ صَبِيلاً

وكقول المتنبي :

بَدَتْ قَمْرًا وَمَالَتْ خُوطُ بَانَ وَفَاحَتْ عُنْبِرًا وَرَنْتْ غَزَالًا

إلى غير ذلك من رقيق الاستعارة وبديعها .

الطريقة الثانية

أن تُرادف الصفات وتكون متكررة لإعظام حال الموصوف ورفع شأنه ، ومن أجل قصد التهويل في المعنى المقصود وإشادة أمره من مدح أو ذم كقوله تعالى : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (١) .

فانظر إلى تعدد هذه الجمل ومجيئها من غير حرف عطف ، كيف أفادت المبالغة في حال الموصوف ، وأشادت من قدره ، ورفعت من حاله ، وأبانت المقصود على أحسن هيئة ، وكقوله تعالى :

(١) النور ٣٥

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ من فوقه موجٌ من فوقه
سحاب ظلماتٌ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴿ (١) .

فتأمل هذه الأوصاف في نعت النور والظلمة ، كيف أصابت المحز ، وطبقت
المفصل في تحصيل المقصود ، وإظهار المبالغة فيه كما ترى .

الطريقة الثالثة

إتمام الكلام بما يوجب حصول المبالغة فيه ، وإكماله به ، وهذا كقول من قال
يمدح نفسه وقومه :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِيْنَا وَنَتَّبِعُهُ الْكِرَامَةَ حَيْثُ كَانَا

فإنه لم يكتف بما صدره في أول البيت من مقدار ما هو عليه وقومه من
الإحسان إلى الجار والقيام بحقه وبذل الجهد في المعروف إليه ، حتى شفعه
بقوله : " ونتبعه الكرامة حيث كانا " مشتملاً على زيادتين ، الزيادة الأولى
لحقوق الكرامة له من الإتحاف والإلطاف وكثرة الإحسان والتبجيل
والتعظيم ، والزيادة الثانية قوله : " حيث كانا " وأراد به حيث يسير من سائر
الجهات من بر أو بحر أو سهل أو جبل ، فحصول هاتين الزيادتين قد
اشتمل على المبالغة فيما ذكرناه ، وكقول أبي تمام في صفة الفرس ومدحه
بصبره وتجلده على الجري :

وَأَصْرَعَ أَيَّ الْوَحْشِ قَفِيَّتَهُ بِهِ وَأُنْزَلَ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أُرْكَبُ

فلما مدحه بأنه يلحق كل وحش عليه ولم يستثن شيئاً من ذلك عقبه بأعظم
منه مدحاً وأكثر مبالغة بقوله : " وأنزل عنه مثله حين أركب " في جموم
جره وكثرة نشاطه ، أو أنه لا يعرق مع كثرة جريه لمزيد القوة وشدة
صلابته { (٢) .

أضرب المبالغة

ترجع حقيقة المبالغة عند العلوي إلى دعوى المتكلم للوصف اشتداداً فيما

(١) النور / ٤٠

(٢) الطراز / ٤٥٨ ، ٤٥٩

سبق من أجله على مقدار ما يُسلمه العقل ويستقر به .

{ المبالغة } الضرب الأول

ما يستبعد في العقل ؛ لكن وقوعه صحيح وهو المبالغة ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ (٢) .

{ الإغراق } الضرب الثاني

ما كان ممكن الوقوع لكنه ممتنع وقوعه في العادة وهو الإغراق ، وهو على وجهين الأول منهما وهو أعجبهما وأدخلهما في العقول ، وهو كل ما يقترن به كاد ، ولو ، ولولا ، وحرف التشبيه وهو " كأن " فمتى اقترنت به أحد هذه الأمور ازداد 'حسنه' ، وظهر إعجابه وهذا كقول امرئ القيس :

من القاصراتِ الطرفِ لو دَبَّ مَحولٌ من النملِ فوقِ الإتبِ منها لأثرا^{١١}

والوجه الثاني أن يأتي مجردًا عما ذكرناه ، وهذا يرد كثيرًا كقول ابن المعتز :

مَلِكٌ " تراه إذا احتبى بنجاهه غمر الجماجِمِ والصفوفُ قيامُ

{ الغلو } الضرب الثالث

ما كان ممتنعًا وقوعه وهو الغلو وهو على وجهين ، الوجه الأول أن يقترن به ما يقربه إلى الإمكان ، وهذا كقول من قال يصف فرسًا له بسرعة جريه

ويكاد يخرجُ سرعةً من ظلِّه لو كان يرغبُ في فراقِ رفيقِ

الوجه الثاني : ما لا يقترن به ما يسوغ قبوله فيكون مردودًا وهذا كقول النمر بن تولب يصف سيفه :

(١) الإسراء / ٢٤

(٢) النحل / ١١٢

يَكَادُ تَحْفَرُ عَنْهُ إِنْ ضَرَبَتْ بِهِ بَعْدَ الذَّرَاعِينَ وَالسَّاقِينَ وَالْهَادِي

ويذكر من مصطلحات المبالغة " الإيغال " (١) وهو { في أصل اللغة ... سرعة السير ، ويستعمل في المبالغة في الشيء ، يقال فلان يُوغِلُ في نظره وفي قراءته أي يببالغ فيهما وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن الإتيان في مقطع البيت وعجزه أو في الفقرة الواحدة بنعتٍ لما قبله مفيدٍ للتأكيد والزيادة فيه ومثاله قول الخنساء :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهُدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ " فِي رَأْسِهِ نَارٌ "

فقولها في رأسه نار ، من الإيغال الحسن لأنها لم تكتف بكونه جبلاً عالياً مشهوراً ، بل زادت لكثرة إيغالها في مدحه وشهرته بقوله " في رأسه نار " لما فيه من زيادة الظهور والانكشاف ؛ لأن الجبل ظاهر فكيف به إذا كان في رأسه نار ، والنار ظاهرة " فكيف حالها إذا كانت في رأس جبل { (٢) .

ومن مصطلحاته أيضاً : " التوجيه " ويُعرفه بقوله : { هو تفعيل " من قولك وَجَهْتَ هذا البُرْدَ ، إذا جعلت له وجهاً يحسن لأجله ويُرغب فيه هذا في اللغة ، وأما في مصطلح علماء البيان فهو أن يكون الكلام له وجهان ثم إنه يردُّ في البلاغة على استعمالين :

الأول : أن يؤكد المدح بما يكون مشبهاً للذم بأن تنفي عن الممدوح وصفاً معيناً ثم تعقبه بالاستثناء ، فتوهم أنك استثنيت ما يذم به فتأتي بما من شأنه أن يذم به وفيه " المبالغة " في مدح الممدوح ومثاله قول النابغة :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُوِّفَهُمْ بَيْنَ قُلُوبٍ " مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ .

الثاني : هو أن يُمدح شيء يقتضى المدح بشيء آخر كقول الشاعر :

هُوَ الْبِدْرُ إِلَّا أَنَّهُ الْبَحْرُ زَاخِرًا خَلَا أَنَّهُ الضَّرْغَامُ لَكِنَّهُ الْوَيْلُ

(١) ذكر الإيغال من قبل ابن رشيقي (ت ٤٥٦هـ) في العمدة ٢ / ٥٧ ، وأسامة بن منقذ ٥٨٤هـ في " البديع في نقد الشعر " / ١٠٤ ، وبدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) في " المصباح " / ٢٣٠ .

(٢) الطَّرَازُ / ٤٦٢ .

تعقيب :

بعد هذه الإطلالة والنظر في معالجة البلاغيين للمبالغة في التراث تتبدى بعض الملاحظات :

١- استقر مصطلح " المبالغة " بعد قدامة وهو يعني التجاوز والإفراط وبلوغ الغاية .

٢- تفرعت مصطلحات كثيرة عن المبالغة ، هي في كثير من وجوهها مرادفة لها وأحياناً تكون على درجة من درجاتها كما قال القاضي الجرجاني : { وإنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشعبة من الإغراق والباب واحد ولكن له درج " ومراتب } (١) مثل : التبليغ ، والإغراق ، والغلو ، والاقتصاد ، والإفراط ، والتفريط ، والإيغال ، والتوجيه ... الخ

لكن ربما يضع بعضهم وهم محقون " المبالغة المذمومة " تحت اسم " الغلو " (٢) كما فعل ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) (٣) .

وهذا الذي أراه حيث تدرج تحت المبالغة المقبولة كل تلك المصطلحات عدا الغلو الذي يعني المبالغة المذمومة (٤) .

(١) الوساطة / ٤٢٠

(٢) ربما لأن اللفظ في ذاته يحمل الذم قال ابن منظور : { غلا في الدين والأمر يغلو غلواً : جاوز حدّه وفي التنزيل : " لا تغلوا في دينكم " وفي الحديث : اياكم والغلو في الدين ، أي التشدد فيه ومجاوزة الحد .. والغلو : الإعداء وغلا بالسهم يغلو غلواً وغلواً ، وغالي به غيلاء : رفع يده يريد به أقصى الغاية وهو من التجاوز { لسان العرب مادة (غ . ل . و) ٥ / ٣٢٩٠ ، ٣٢٩١ .

(٣) انظر تحرير التحرير - ابن أبي الإصبع المصري - تحقيق د . حفي محمد شرف القاهرة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م / ٣٢٣ .

(٤) ويبيّن " أن القدماء اختلفوا حيال مصطلح " الغلو " فمنهم من قبله ، ومنهم من رفضه ، والبحث قائم على عدّ الغلو تجاوزاً قبيحاً مردوداً .

بقي أن أشير إلى أن " المبالغة " إذا كانت هي الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياته ، واستقصائه كافة جوانبه ، في لفظ أو تركيب أو تصوير ، فإنه ليس هو كل القضية ؛ فالذوق الفني له دوره ، لأن هذه الصورة ستقدم لقارئ له قِيمه وأفكاره وتقاليد وثقافته ، فلا بد من وضع هذا في الحسبان فكم من صورة جميلة مبالغ فيها إلى أقصى غايتها ، صادقة في تعبيرها ، لكنها تهز القارئ في مسلماته الثابتة ، أو في معتقداته الراسخة ... إلخ .

ومن ثمّ يمكن القول : إذا كانت " المبالغة " نجاحاً في اختيار الإطار الذي يقدم به الشاعر صورته في أقصى غاياتها ، بحيث يسهل التعاطف معها ومعه فيها ، وتصبح إضافةً لحياتنا الوجدانية والعقلية معاً ، فإن " الغلو " : فشلٌ في هذا الاختيار أو إخفاق في التصوير ، فينسبُ إلى الإسراف ، والمغالاة ، والمبالغة المذمومة وينسب أيضاً إلى الإحالة السمجة ؛ لأن الشاعر تخطى أقصى الحدود الممكنة للمعنى ، بقصد الإغراب أو التشويق ، أو لفت الانتباه ، بيد أنه أخفق في المحاولة ، فيصير الرداء فضفاضاً على التجربة التي خاضها ، وتصير الصورة باهتة ، واللفظ بارداً (١) .

فمقياس " المبالغة " ليس ذاتياً من قِبل الشاعر ، ولا انطباعياً من قِبل المتلقي ، ولكنه درجة من التجانب والتعاطف والتلاقي بين المتلقي والنص ، تجعل الصورة أكثر قبولاً وصدقاً وإثارةً .

ومن هنا تأتي " نسبية الصورة " ؛ لأن المبالغة تعتمد أساساً على تخطي الحد المتعارف عليه إلى حدود أوسع وأرحب ، وتحتاج دائماً إلى التلاقي والتفاعل المثري بين المتلقي وفنية المبالغة ، ومن ثم ما يكون مبالغة في

عصرٍ من العصور ، قد لا يكون كذلك في عصرٍ آخر وما يكون مبالغة في بيئة قد لا يكون كذلك في أخرى فمثلاً قول الشاعر :

وَنُكِرْمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا وَنَتَّبِعُهُ الْكِرَامَةَ حَيْثُ مَا لَا

(١) انظر : السبيح في شعر شوقي - د . منير سلطان - الناشر ، منشأة المعارف بالإسكندرية - ط الأولى ١٩٨٦م / ٢٢٢

مرصود" في تراثنا من "المبالغة" لأن { كون جاره لا يميل إلى جهة إلا تبعته كرامته مستحيل " عادةً ممكن عقلاً } (١) أما الآن فالبيت ليس من "المبالغة في شيء" ؛ لأنه بإمكان أي دولة أو جماعة أن تولي عناية خاصة بشخص ما في أي مكان يحل فيه عن طريق : { القنصلية } أو { السفارة } التابعة لها في جميع أقطار الأرض وأصبح هذا من المشهور الميسور عادةً وعقلاً ، لكن هذا بدوره لا يقدح في كونها "مبالغة" في عصرها وبيئتها ، وستظل هكذا أبداً ، لأنها مرهونة بظرفها ، مقرونة بجوها التي قبلت فيه .

والخلاصة التي أرمي إليها – تجنباً لهذا التراكم الدرّجي الكائن في تلك التفريعات والمترادفات لمصطلح "المبالغة" وفي الوقت ذاته حرصاً على عدم إضاعة جهد المتلقي في إدراج المبالغة في إحدى فروعها وتقسيماتها – أنه ليس لدينا من مصطلحات سوى "المبالغة" و "الغلو"

فالغلو : مرحلة ما بعد "بلوغ الغاية وأقصى النهاية" فما ثمّ إلا الكذب والشطط الذي لا طائل تحته وقد يقترن بصدم ثوابت المتلقي ، فتعاقفه النفس وتمجه المشاعر مثل قول أبي نواس في مدح هارون الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه تخافك النطف التي لم تُخلق .

فهو معيب عند البلاغيين للخروج عن الحدّ المسموح وإفراطه في الإحالة المرذولة { حيث صيّرته تخافه النطف التي لم توجد ، ومعلوم أن خوف النطف محال ؛ لأن شرط الخوف عقلاً : الحياة ، فيستحيل الخوف من الموجود ، غلو مردود } (٢) .

(١) "عرس الأقران في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السيكي – ضمن شروح التلخيص – الجزء الرابع – دار البيان ودار الهادي – ط الرابعة ١٤١٢م – ١٩٩٢م / ٣٦٠ ، ٣٦١

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص – الجزء الرابع / ٣٦١

كذلك لافتقاده الصدق الفني وصدمه لمشاعر المتلقي (١) .

فليس بعد المبالغة الحسنة إلا الغلو الكاذب ، وليس وراء الصدق الفني إلا التكلف والسَّخْف وليس ثمة قسمة " أخرى :

فإما نجاح " للصورة فهي " مبالغة مقبولة " . وإما إخفاق فيها فهي من " الغلو المردود " (٢) .

ومن نافلة القول أن "أذكرُ بأن جميع مبالغات القرآن من القسم الأول : المبالغات الحسنة المقبولة فقط أما القسم الثاني فمقصود " على قول البشر ونتاج الناس .

٣- من اللافت أن عبد القاهر الجرجاني - من بين نقادنا - الذي فطن إلى الخيط الدقيق بين صور البلاغة وفنية المبالغة - كما بيّنت من قبل-ولهذا لم يضع تعريفاً للمبالغة ، لأنها تتساق في جميع فنون المبالغة إفراداً وتركيباً وتصويراً ، وهذا الذي حدا ببعض البلاغيين المحدثين أن يجعل التشبيه والاستعارة والكناية والتقديم والتأخير ، والتنمिम والإيغال بمثابة أوجه متعددة للمبالغة والغلو (٣) .

ولعله أتضح الآن - بما لا يدع مجالاً لشاك ، أو إنكاراً لزاعم - أن القول بأن المبالغة كذب - وإفراط .. وأن الواجب الحذر منها والتقليل من شأنها ، ونزعها من البلاغة والقرآن - قول " باطل وزعم فاسد ، ويقف من وراء هذا الزعم دعوى باطلة لإفساد الذوق الأدبي ، وهدم أسس البلاغة العربية والتنقيص من التراث العربي .

(١) لم أر أحداً من القدماء أو المحدثين انتصر لهذا البيت المعيب قتيلاً إلا د . أحمد عبد السيد الصاوي حيث برّر وجهة نظره بقوله : { إلا إن هذه " المبالغة " من وجهة نظري لها وجه من الصحة الطرفية ، وحسن التخيل ، ذلك أن مراد الشاعر : أن هذا الخوف قد انتشر وعم وشمل حتى أنه قد دب في النطف التي لم تخلق بعد ، فما بالك بمن هم أحياء على اختلاف ألوانهم وأنواعهم وملهم ؟ إنه " الغلو " الذي يُعدُّ من قبيل " الممتع " الذي يمكن حدوثه ، أو تصوره عقلياً وليس من قبيل " المتناقض " الذي لم يحدث ، ولا يمكن تصور حدوثه { مفهوم المبالغة في الفكر النقدي والبلاغي - د . أحمد عبد السيد الصاوي - ١٩٩٠م / ٢٦٧ وفي رأبي أن عيب البيت ليس من جهة التخيل أو الامتناع أو الإحالة وإنما لفقده الصدق الفني وصدمه لمشاعر المتلقي مما جعله يفقد التجاذب والتلاقي بينه وبين المتلقي وهذا ما اتفقت عليه كلمة العلماء قديماً وحديثاً .

(٢) انظر : البديع في شعر شوقي - د . منير سلطان / ٢٢٢

(٣) انظر : مفهوم المبالغة في الفكر النقدي والبلاغي - د . أحمد عبد السيد الصاوي / ٣٥٧

فالمبالغة هي العنصر الحيوي للبلاغة ، والجوهر النفيس لمعدنها ، ولولا المبالغة لاستحالت البلاغة شكلاً بلا مضمون ورسمًا بلا دلالة .

(٣) المبالغة بين الصدق والكذب

ليست قضية الصدق والكذب مقصورةً على المبالغة ، لكنها منوطـة — أيضًا — بالمبالغة عامة ، فقولنا : زيد أسد ، ليس على الحقيقة ، ولا مقرونًا بالصدق الأخلاقي ؛ إذ ليس زيد " أسدًا إلا على سبيل التشبيه والادعاء والتمثيل قصدًا للبيان والتوضيح . قل مثل هذا في " المبالغة " ففي قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ ^(١) قال من لم يستوعب المجاز ويُذرك كلام العرب : { كيف تبلغ القلوب الحلوقة ، والقلب إن زال عن موضعه شيئًا ، مات صاحبه } ^(٢) .

بينما قال أهل الفهم والعلم : { بلوغ القلوب الحناجر مبالغة في اضطرابها ، ووجيبها دون أن تنتقل من مقرها إلى الحنجرة ، وقيل : بحت القلوب من شدة الفزع ، فينصل وجيبها بالحنجرة ، فكأنها بلغت } ^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ ^(٤) على المعنى نفسه من " المبالغة " الدالة على استحالة دخول الكافرين الجنة ، فهم { لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبدًا من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في بابٍ واسعٍ في ثقب الإبرة } ^(٥) .

(١) الأحزاب / ١٠

(٢) تأويل مشكل القرآن — ابن قتيبة — تحقيق السيد أحمد صقر — دار التراث ، القاهرة — ط الثانية ١٣٩٣هـ — ١٩٧٣م / ٣١ .

(٣) تفسير البحر المحيط — أبو حيان الأندلسي — تحقيق د . عادل أحمد عيد الموجود والشيخ علي محمد معوض و د . زكريا عبد المجيد و د . أحمد الجولي — دار الكتب العلمية ، بيروت ط الأولى ١٩٩٣م / ٧ / ٢١١

(٤) الأعراف / ٤٠

(٥) الكشاف — الزمخشري — دار المعرفة ، بيروت ٢ / ٦٢

كذلك حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أبي هريرة :
{ لا يُلج النارَ رجلٌ " بكى من خشية الله حتى يعود اللبنُ في
الضَّرع ... } (١) على المنوال نفسه من المبالغة ، فمُحال " أن يعود اللبن
في الضرع مرة ثانية ، كذلك محال أن يدخل النار رجلٌ " بكى من
خشية الله .

كذلك ثمة أشعار بلغت الغاية في المعنى أدركت العرب مغزاها وإن
قصر عن بعضهم جمالها وحسنها قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) : { كان بعض
أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن ، وينسبها فيه إلى الإفراط
وتجاوز المقدار . وما أرى ذلك إلا جائزاً حسناً على ما بيّناه من مذاهبيهم
كقول " النابغة " في وصف سيف :

تَقْدُ السَّلَوقِيَّ المِضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتَوَقِّدُ بالصَّفَاحِ نارَ الحُبَابِ

ذكر أنها تقطع الدروع التي هذه حالها ، والفرس حتى تبلغ الأرض فتوري
النار إذا أصابت الحجارة .

وقول " النمر بن تولب " في صفة سيف :

تَظَلُّ تحفر عنه إن ضربت به بَعْدَ الدَّرَاعَيْنِ والسَّاقَيْنِ والهادي

يقول : رسب في الأرض بعد أن قطع ما ذكر ، واحتاج أن يحفر عنه
ليستخرجه من الأرض ... والعرب تقول : " له الطم والرّم " إذا أرادوا تكثير
ماله والطم : البحر ، والرّم : الثرى . وهذا لا يملكه إلا الله تعالى ..
ويقولون : " له الضحّ والريح " يريدون ما طلعت عليه الشمس ، وجرت
عليه الريح ويقولون : " فلان يثير الكلاب عن مرائبها " يريدون أنه لشرهه
ولؤمه - يثيرها عن مواضعها - يطلب تحتها شيئاً فاضلاً من طعامها
ليأكله . وهذا ما لا يفعله بشر . وقال " الشاعر " :

تَرَكَوا جَارَهُمَ يَأْكُلُهُ ضَبَعُ الوادي وَيَرْمِيهِ الشَّجَرُ

(١) رواه الترمذي وقال : حديث " حسن صحيح "

والشجر لا يرمي أحدًا . وهذا كله على المبالغة في الوصف ، وبنوون في جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد منه { (١) } .

فالعرب كانت تعلم المراد من " المبالغة " وتفرّق بين ما هو حقيقة ، وما هو مجاز في شتى أساليب البلاغة .

وقد قسّم د . إحسان عباس الصدقَ خمسةَ أقسام وهو بصدد الحديث عن ابن طباطبا في قوله : { لهذا كانت لفظة الصدق متفاوتة الدلالة عند ابن طباطبا :

(١) فهناك الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها والتصريح بما يكتّم منها و الاعتراف بالحق في جميعها ، وهذا يشبه ما نسميه :

" الصدق الفني " أو " إخلاص " الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية .

(٢) وهناك صدق التجربة الإنسانية عامة ، وهذا يتمثل في قبول الفهم للحكمة " لصدق القول فيها وما أتت به التجارب منها " .

(٣) وهناك الصدق التاريخي ، وذلك يتمثل عند " اقتصاص خبر أو حكاية كلام " وهنا يُجيز ابن طباطبا للشاعر إذا اضطر أن يزيد أو ينقص على شرط أن تكون " الزيادة والنقصان يسيرين غير مخدجين لما يُستعان بهما ، وتكون الألفاظ المزيدة غير خارجة من جنس ما يقتضيه ، بل تكون مؤيدة له وزائدة في رونقه وحسنه " .

(٤) ونوع رابع من الصدق قد تدعوه " الصدق الأخلاقي " وهو ما لا مدخل فيه للكذب بنسبة الكرم إلى البخيل أو نسبة الجبن إلى الشجاع وإنما هو نقل للحقيقة الأخلاقية على حالها ، وهذا يتبين في المدح والهجاء كما يتبين في غيرهما من الفنون ، وهو موقف يذكرنا بثناء عمر - رضي الله عنه - على زهير ، وأنه كان يمدح

(١) تاويل مُشكّل القرآن - ابن قتيبة - تحقيق السيد أحمد صقر - دار التراث - القاهرة - ط الثانية / ١٧٢-١٧٨

الرجل بما فيه ، ولكن من المدهش أن نجد مزاجه ابن طباطبا أو مثاليته ترى في كل الشعر قبل عصر المحدثين ما رآه عمر في زهير : " ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء في صدر الإسلام من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحاً وهجاءً وافتخاراً ووصفاً وترغيباً وترهيباً إلا ما قد احتل الكذب فيه في حكم الشعر من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه وكان مجرى ما يوردونه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصدق ... أما المحدثون فلم يعودوا يستطيعون هذا النوع من الصدق ، ولذلك أصبح تقدير شعرهم إنما ينصرف إلى معانيهم المبتكرة وألفاظهم المنتظمة ، ونوادرهم المضحكة .

والأناقة العامة التي تمازج أشعارهم " دون حقائق ما يشتمل عليه المديح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفون القول فيها " وهذا التصور يُفسر لنا لِمَ كانت " السنّة " العربية في الشعر تملك لب ابن طباطبا ، ذلك لأنه لم يكن يرى المثل الأعلى الفني في تلك السنّة وحسب ؛ بل لأنها كانت في تصوره مثالا أخلاقياً كذلك .

(٥) أما النوع الخامس من الصدق ، فهو الصدق التصويري أو ما يسميه ابن طباطبا " صدق التشبيه " وهو ينص عليه في غير موطن من كتابه على الشاعر أن " يتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته " وأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ؛ بل يكون كل شبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مثله مشتبهاً به صورة ومعنى ، وللتشابه أنحاء : منها الصورة والهيئة والمعنى والحركة واللون والصوت ، فكلما زاد عدد هذه الأنحاء في التشبيه " قوي التشبيه وتأكد الصدق فيه " { (١) .

وجملة القول أن الصدق الفني — عند ابن طباطبا — يكشف المعاني المُختلجة ويُصرِّح بما غاب منها في ثوبٍ فنيٍّ لافِت ، حيث يبرز فيه إخلاص الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية وهو المعسول الأساسي

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب — د . إحسان عباس — دار الشروق للنشر والتوزيع — عمان ، الأردن — ط الثانية ١٩٩٢م / ١٣٠ - ١٣٢

والمغزى المراد من فنون الأدب ، يبيد أن " ابن طباطبا " يرى أنه كلما التزم الشاعر بالصدق الأخلاقي أيضاً ، كان ذلك أنجع وأبرع ، فهو لا يطالب الشاعر بالتزامه بتحرّي الحقائق ، كما لا يطالبه — في الوقت ذاته — بتزييف الحقائق وطمس الوقائع .

بينما ينأى " عبد القاهر " بالشعر جملةً عن الصدق الأخلاقي والكذب الأخلاقي ، وهو بصدد تحليله هل خير الشعر أصدق أم أكذبه؟! إذ يقول : { من قال : " خير الشعر أكذبه " فهذا مراده ، لأن الشعر لا يكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً ، وانحطاطاً وارتفاعاً ، بأن ينحل الوضيع صفةً من الرفعة هو منها عارٍ ، أو يصف الشريف بنقصٍ وعارٍ ، فكم جواد بخّله الشعر وبخيل سخّاه ؛ وشجاعٍ وسمه بالجبن وجبان ساوى به الليث ، ودني أوطاه قمة العيوق ، وغبي قضى له بالفهم ، وطائش أدعى له طبيعة الحكم ثم لم يُعتَبَر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقدُ دنائره ، وتُنشر ديابيجه ، ويُفتق مسكه فيضوعُ أريجُه .

وأما من قال في معارضة هذا القول : " خير الشعر أصدق " كما قال :

وإنَّ أحسنَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ بيتٌ " يُقالُ إذا أنشدته صدقاً

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دلّ على حكمة يقبلها العقل ، وأدبٍ يجب به الفضل ، وموعظة تروّض جماح الهوى ، وتبعث على التقوى وتبين موضع القُبْح والحسن في الأفعال ، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال ، وقد يُنحى بها نحو الصدق في مدح الرجال ، كما قيل : " كان زهيرٌ لا يمدح الرجل إلا بما فيه " والأول أولى — لأنهما يتعارضان في اختيار نوعي الشعر (١) .

ثم يزيد الأمر بياناً فيقول : { فمن قال : " خيرهُ أصدقهُ " كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح ، واعتماد ما يجري من

(١) النوع الأول : الصدق الفني ، دون النظر إلى غاية من الغايات ، والنوع الثاني : الصدق الخلقى والحث على الفضائل ، وقد انتصر للنوع الأول .

انظر أسرار البلاغة — تحقيق محمود محمد شاكر / ٢٧١-٢٧٢

العقل على أصل صحيح ، أحب إليه وأثرَ عنده ، إذ كان ثمره أحلى ، وأثره أبقى ، وفائدته أظهر ، وحاصله أكثر = ومن قال : " أكذبه " ذهب إلى أن الصنعة إنما تُمدُّ باعها ، وتنتشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويُدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل ، وحيث يُقصد التلطف والتأويل ، ويُذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف والبتُّ والفخر والمباهاة وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعرُ سبيلاً إلى أن يُبدع ويزيد ويُبدى في اختراع الصور ويُعيد ، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً ، ومدداً من المعاني متتابعاً ويكون كالمغترف من غديرٍ لا ينقطع ، والمستخرج من معدنٍ لا ينتهي { (١) } .

وبيّن " أن " عبد القاهر " ينتصر للصدق الفني ، ينتصر لعدم تقييد الشعراء بالصدق الخلقى والحث على الفضائل .

ومن هنا فلا شأن للمبالغة بالكذب الأخلاقي ، لأنها فن " كسائر فنون البلاغة تعتمد التصوير ، وتجنح إلى الخيال ، فإذا لم تُزيّف الحقائق ولم تصوّر غير الواقع النفسي الداخلي ، ولم توهم الباطل حقاً ، ولم تقلب الأسطورة حقيقةً ، كانت مقبولة بل تكون دعامةً قويةً من دعائم التصوير الفني الّلافت .

ساعتها تؤدي المبالغة معنى لا يقوم غيرها فيه مقامها ، وكأننا أمام مشهدٍ صادق ، ترى فيه الصورة ممزوجةً بالحقيقة ، والواقع ملفوفاً بالفن .

ساعتها ترى براعة الفنان في استخدام الأدوات المتاحة له ، يُصور بها تجربته بأقصى درجة من الإحاطة والشمول ، بحيث تخدم الصورة التي توصل إليها وتجربته الصادقة التي عاشها ، وفكرته الفنية التي يؤديها وله تمام الحرية في أن ينتقي من الألفاظ ما يختار ، ويُغيّر في خواص الأشياء والتصورات ما شاء له التصور والتخييل ، طالما أنه قادر " على شدنا إلى

(١) أسرار البلاغة / ٢٧٢

عالمه ومحيطه الذي يتحرك فيه دون شططٍ أو إسرافٍ أو غلو (١).

ويُعَدُّ من هذه البراعة : فكرة قلب الذم مدحاً ، حيث يدخل جانب الذوق ، وقوة صنعة الشعر الساحرة ، والمبالغة في الترويح لفكرة ما ، مدخلاً ركيناً في إيداء الصورة ، وتزيين الفكرة ، الأمر الذي يدعو ذوق المتلقي إلى قبول أو رفض تلك الصورة من حيث التحسين أو التقييح ، والافتخار أو التتقيص ، فالمسألة مرهونة بحس المتلقي ، وصدق المبدع وإخلاصه في إبداع الصورة ، مثلما كان من أمر القبيلة التي كانت تُعَيَّرُ بأنف الناقة ، حتى قال الحطيئة :

قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الدُّنْبَا

قال عبد القاهر : { فنفي العار ، وصحح الافتخار ، وجعل ما كان نقصاً وشيناً ، فضلاً وزيناً ، وما كان لقباً وتبزاً يسوء السمع ، شرفاً وعزاً يرفع الطرف ، وما ذاك إلا بحسن الانتزاع ، ولطف القرينة الصنّاع ، والذهن الناقد في دقائق الإحسان والإبداع ، كما كساهم الجمال من حيث كانوا عرؤوا منه ، وأثبتهم في نصاب الفضل من حيث نُفُوا عنه ، فلربُّ أنفٍ سليمٍ قد وضع الشعر عليه حدّه فجذعه ، واسمٍ رفيعٍ قلب معناه حتى حط به صاحبه ووضعهُ } (٢).

مثال ” آخر : صلبُ مقتول : { وقد علم أن ليس في الدنيا مثلاً ” أخزى وأشنع ، ونكال ” أبلغ وأفظع ، ومنظر ” أحقُّ بأن يملأ النفوس إنكاراً ويُزعج القلوب استفظاعاً له واستتكاراً ، ويُغري الألسنة بالاستعاذة من سوء القضاء ، ودراك الشقاء ، من أن يصلب المقتول ويُشَبَّحَ في الجذع .

ثم قد ترى مرثية أبي الحسن الأنباري لابن بقية حين صلب ، وما صنّع فيها من السحر ، حتى قلب جملة ما يُستتكر من أحوال المصلوب إلى خلفها ، وتأوّل فيها تأويلات أراك فيها وبها ما تقضي منه العجب :

(١) انظر : البديع في شعر شوقي - د . منير سلطان - منشأة المعارف بالإسكندرية ط الأولى ١٩٨٦م / ٢٢١

(٢) أسرار البلاغة / ٣٤٤

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ	بِحَقِّ أَنْتِ إِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ .
كَانَ النَّاسُ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا	وَفَوْدُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ .
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيئًا	وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ .
مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً	كَمَدَّهُمَا إِلَيْهِمْ بِالْهَبَاتِ
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ	يَضُمَّ عَلاكَ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ
أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَاسْتَنَابُوا	عَنِ الْأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّاقِيَاتِ .
لِعُظْمِكَ فِي النُّفُوسِ تَبِيئٌ تُرَعَى	بُحْرَاسٍ وَحِقَاطٍ ثَقَاتِ .
وَتُسَعَلُ عِنْدَكَ النَّيْرَانُ لَيْلًا	كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ .
رَكِبْتَ مَطِيئَةً ، مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ	عَلَاهَا فِي السَّنِينَ الْمَاضِيَاتِ .
وَتِلْكَ فَضِيلَةٌ فِيهَا تَأْسٌ	تُبَاعَدُ عَنْكَ تَعْيِيرُ الْعِدَاةِ (١)

فقد قلب الشاعر معاني التنقيص والنكال إلى معاني الشرف والإجلال ، فجاءت عبقرية " المبالغة " في رسم هذه الصورة الساخرة ، التي تتضح مرارة الظلم والظالمين ، وترسم المظلوم " المصلوب " بطلاً ، فجعل ما يُنفر منه ، يُجذب إليه ، وما يخجل الإنسان أن يُنسب إليه ، يفتخر به .

ولكان الإنسان من براعة الصورة وجودة المعنى وحسن الأداء ليتمنى أن يكون ذاك المصلوب ، تجاوباً معه ، واحتراماً لوقفته واستشعاراً لمظلّمته .

ومن هنا فإن مقياس المبالغة ليس ذاتياً من قبيل الشاعر ، ولا انطباعياً من قبيل المتلقي ، ولكنه درجة من التعاطف والتلاقي والتجاذب بينهما مما يجعل الصورة أكثر امتاعاً وقبولاً وإثارةً للخيال (٢) .

(١) أسرار البلاغة ٣٤٦ - ٣٤٧

(٢) انظر : البديع في شعر شوقي د . منير سلطان / ٢٢٢

والخلاصة أن الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه " المبالغة " هو الصدق ليس بالمعنى الأخلاقي الذي هو نقيض الكذب ، وإنما الصدق بمضمونه الفني والشعوري ، حيث نصل إلى نقطة في الصورة لا يغني عن المبالغة فيها سواها ، لا سيما في المواقف التي تستدعي إثارة الفكر والوجدان ؛ ولذا فإن قيمة المبالغة ليست في صدقها أو كذبها وإنما بقبول النفس لها واقتناع المتلقي بها ، وتعبيرها عن الموقف أصدق تعبير .

(٤) المبالغة بين المُستحيل و المُمتنع و المُمكن

تدور المبالغة في تراثنا حول هذه الكلمات " المستحيل " و " الممتنع " و " الممكن " ، فعرف الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) " المبالغة " بقوله : { أن يُدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًا مستحيلًا أو مستبعدًا ؛ لئلا يُظن أنه غير متناهٍ في الشدة أو الضعف . وتتحصر في " التبليغ " ، و " الإغراق " و " الغلو " ؛ لأن المدعي للوصف من الشدة أو الضعف إما أن يكون ممكنًا في نفسه ، أو لا . الثاني الغلو ، والأول إما أن يكون ممكنًا في العادة أيضًا ، أو لا . الأول : التبليغ ، الثاني : الإغراق } (١) وقد بينتُ هذا في الحديث عن تقسيم محمد بن علي الجرجاني للمبالغة (٢) .

وعرف " حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) " المستحيل بأنه { هو الذي لا يمكن وقوعه ولا تصوره ، مثل أن يكون شيء طالعًا نازلاً في حال } (٣) .

وعرف الممتنع بأنه { هو الذي يُنصّر وإن لم يقع كتركيب عضو من حيوان على جسد من حيوان آخر } (٤) .

(١) الإيضاح / ٤١٢

(٢) انظر ص ٣٩ من التمهيد .

(٣) منهاج البلغاء / ١٣٣

(٤) نفسه / ١٣٣

واستبعد المستحيل من المبالغة ، بل جعل الوصف به من الفحش ، ولم يسوغ الممتنع إلا على صورة من المجاز في قوله : { والوصف بالمستحيل أفحش ما يمكن أن يقع فيه جاهل أو غالط في هذه الصناعة ، والممتنع قد يقع في الكلام إلا أن ذلك لا يُستساغ إلا على جهة من المجاز..... فبهذا الترتيب يتبين ما يصح من المبالغة ، وما لا يصح ، ولا يحسن فإن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح وقد خالف في هذا جماعة ممن لا تحقيق عنده في هذه الصناعة ولا بصيرة له بها ، فاستحسنوا من المبالغة ما خرج عن حدّ الحقيقة إلى حيز الاستحالة } (١) .

ويتضح من هذا أن المستحيل عنده فحش ، والإحالة قبيحة ، والممتنع مشروط بالمجاز ، ولا يسلم عنده للدخول في المبالغة إلا " الممكن " وحده والقائل بغير هذا "أناس" لا تحقيق لهم ولا بصيرة .

أما " ابن قتيبة " (ت ٢٧٦هـ) فيسوغ قبول المبالغة عند الانتقال من الإمكان إلى الإحالة أو الامتناع بالاحتكام إلى " كاد " ظاهرة أو "مقدرة" : { وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي " بكاد" ، فما لم يأت " بكاد" ففيه إضمارها كقوله : ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أي كادت من شدة الخوف تبلغ الحلق } (٢)

ويقول في التعليق على بيت " الشاعر " :

تَرَكُوا جَارَهُمْ يَأْكُلُهُ صَبَعُ الْوَادِي وَيُرْمِيهِ الشَّجَرُ

{ والشجر لا يرمي أحداً وهذا كله على المبالغة في الوصف ، وينوون في جميعه يكاد يفعل ، وكلهم يعلم المراد به } (٢) .

ويسير " قدامة " (ت ٣٣٧هـ) على منوال " ابن قتيبة " فيحتكم — أيضاً — إلى " كاد " مسوغاً قبول المبالغة ، قال في التعليق على

(١) منهاج البلغاء / ١٣٣ - ١٣٤

(٢) تاويل مُشكَل القرآن / ١٧١

(٣) نفسه / ١٧٨

قول أبي نواس :

يَا أَمِينَ اللَّهِ عِشْ أَبَدًا دُمَّ عَلَى الْأَيَّامِ وَالزَّمَنِ

{ فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاعل لهذا الممدوح بقوله :
عِشْ أَبَدًا ، أو دعا له ، وكلا الأمرين ، مما لا يجوز ، مستقبح ... وليس في
طباع الإنسان أن يعيش أبدًا ، وأيضًا فإننا كنا قد قَدَّمنا أن مخارج الغلو إنما
هي على " يكاد " وليس في قول أبي نواس : عِشْ أَبَدًا ، موضع يحسن فيه
لأنه لا يحسن على مذهب الدعاء أن يقال : يَا أَمِينَ اللَّهِ تَكَادَ تَعِيشُ
أَبَدًا } (١) .

وكان قول أبي نواس قبيح على كل وجه سواء قَدَّرت " كاد " أو لم
تَقَدِّرْ وقد ردَّ " ابن الأنباري " تقدير " كادت " فإن " كاد " لا تضم (٢) .

وفي رأيي أنه ليس من الصواب قبول " المبالغة " أو رفضها لقربها أو
بعدها من المستحيل أو الممتنع بإطلاق ، وإنما الأجدى أن تقبل المبالغة على
أساس الصدق الفني : صدق المبدع في تجربته ، وإخلاصه فيها ، وبراعته
في استخدام الأدوات ، وأخيرًا وهو الأهم اقتناع المتلقي بها ، وتواصله
تواصلًا حميمًا مع النص .

وكما قال " أرسطو " : " المستحيل المحتمل خير " من الممكن غير
المحتمل " أو بمعنى آخر : { المستحيل المُقنع أقرب إلى غاية الشعر من
الممكن غير المُقنع } ولما كان الأمر كذلك : فإن المستحيل الذي يعجز
المؤلف عن تبريره " فنيًا " ليغدو مقنعًا هو ما يُسمَّى بالمستحيل فنيًا -
وهو ما ينفيه " أرسطو " من العمل الأدبي على إطلاقه { (٣) } .

فإذا كان المستحيل - وهو خارج ~~عن دائرة~~ عن دائرة المبالغة - هو
الذي لا يمكن وقوعه ولا تصوره ، مثل أن يكون شيء طالعًا نازلًا في

(١) نقد الشعر - لأبي الفرج قدامة بن جعفر - تحقيق كمال مصطفى - ط الثالثة ١٩٧٨م / ٢١٣ -
٢١٤

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي - تحقيق محمد أبو
الفضل إبراهيم - دار التراث - ط الثانية ٥٢ / ٣

(٣) مفهوم المبالغة / ٢٩٦ - ٢٩٧

حال (١) فماذا تقول في قول امرئ القيس وقد لقي الاستحسان :

مِكْرٌ مِفْرٌ مَقْبَلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

فالكرُّ والقرُّ نقيضان ، والإقبال والإدبار نقيضان وجمع كل مستحيل ، ومع هذا أجاد وأبدع لصدق تجربته ، وحسن تبريره ، وفنيته في الشعر .

والمعاني القريبة - كذلك - لا تخلو من مبالغة حتى أجاد المبدع ، ووازن بين المعاني فاختر أجودها وانتقى من الصيغ والألفاظ أنسبها ، وفي الوساطة ينقل لنا " القاضي الجرجاني " كيف تنتقل المعاني إلى أقصاها مثل قول بعض العرب في هيبة الرؤية :

تُغْضِي الْعَيُونَ إِذَا تَبَدَّى هَيْبَةً وَيُنْكَسُ النَّظَارُ لِحَظِّ النَّظِيرِ

أخذ هذا المعنى وبلغ فيه أقصاه الحزين الدؤلي فقال :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ (٢)

كذلك قول عبد الله بن طاهر :

إِنَّ الْفَتْوحَ عَلَى قَدْرِ الْمُلُوكِ وَهَمَّاتِ الْوَلَاةِ وَأَقْدَارِ الْمَقَادِيرِ

أخذ هذا المعنى وانتقل به إلى الغاية في الإجادة أبو الطيب المتنبي فقال :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعِزْمِ تَأْتِي الْعِزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ (٣)

ومن هنا فلا حكر على الشاعر في أي دائرة شاء أن يبدع فليبدع ما توافر قيد " ابن قتيبة " { وكلهم يعلم المراد به } (٤) .

قلبيدع في المعاني القريبة والبعيدة ، في الممكن ، والممتع ، والمستحيل بشرط توافر هذه النقاط :

(١) منهاج البلغاء / ١٣٣

(٢) انظر : الوساطة / ٢٩٦

(٣) نفسه / ٢٢٨

(٤) تاويل مشكل القرآن / ١٧٨

- ١- الصدق الفني وإخلاص الشاعر في تجربته .
- ٢- براعة استخدام الفنان للأدوات المتاحة .
- ٣- عدم صدمه لثوابت الناس ومشاعرهم .
- ٤- قبول النفس لها .
- ٥- اقتناع المتلقي بها .
- ٦- تعبيرها عن الموقف أصدق تعبير بحيث لا يغني عنها سواها .

وإليك رسماً تخطيطياً مقترحاً لدوائر المبالغة
وهو 'معدّل لتقسيم محمد بن علي الجرجاني للمبالغة

المبالغة المعاني

بعيدة - أقصى المعنى

قريبة

مثل :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
يهن فلول " من قراع الكتائب

ومثل :

يغضبي حياة ويغضبي من مهابته
فلا يكلم إلا حين يتسم

غير ممكنة { الغلو }

مثل :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه
لتخافك النطق التي لم تخلق

ومثل :

تظلل تحقر عنه إن ضربت به
بعد الذراعين والساقين والهادي

مضموم
لافتقاده
بعض
الشروط

ممدوح

ممكنة

في العادة { التبليغ }

مثل :

فعادي عداة بين ثور ونعجة
دراكا ولم ينضح بماء فيغسل

وقد يخرج عن حد الغلو { المستحيل أو الممتع }

في العقل { الإغراق }

مثل :

ونكرم جازنا مادام فينا
وتتبعه الكرامة حيث مالا

بنوع من التخيل

يخيل لي أن سمر الشهب في الدجى وشدت بأهدابي إليهن إيجاني
مكرر مقرر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

بلفظة يكاد

مثل قوله تعالى :

" يكاد زيتها يضيء "

رسم تخطيطي شامل لدوائر المبالغة وهو مُعدّل لتقسيم
محمد بن علي الجرجاني للمبالغة

(٥) تفرّد مبالغات القرآن

وردت جميع المبالغات في القرآن الكريم قوية جزلة ، تحمل جميعها تفرّداً وتمييزاً مفارقاً لكلام البشر ؛ فهي لا تنبو عن ذوق ، ولا ينكرها عقل وكلها من المبالغات الحسنة المقبولة التي سلّمت من الاضطراب والزيغ ومن الإسراف والزيغ .

ودرجاتها — عند المفسرين — من التبليغ ، والاقتصار ، والإغراق ، والإفراط ... الخ ، مرده مصطلح " واحد " هو " المبالغة " ، وهذا ما اتفق عليه المفسرون في تسمية الجميع " مبالغة " دون الانخراط في تفرّيعات البلاغيين التي نحن في غناء عنها حتى لا تضع جهود المتلقين دون طائل من تلك التقسيمات .

ومن الذين نصّوا على فضيلة المبالغة ووجودها في القرآن الكريم وكلام العرب " بدر الدين بن مالك " (ت ٦٨٦هـ) يقول : { ومع هذا فطلمبالغة فضيلة لا تُتكر ، ولو كانت معيبة لما أتت في القرآن الكريم على وجوه شتى ، ولبطلت الاستعارة والتشبيه ، وكثير " من محاسن الكلام } (١) .

وقال " ابن النقيب " في مقدمته : { قال علماء علم البيان : المبالغة : الزيادة على التمام ، وُسِّمَت مبالغة لبلوغها إلى زيادة على المعنى لو أزيلت تلك الزيادة وأسقطت كان المعنى تاماً دونها ، لكن الغرض بها تأكيد ذلك المعنى في النفس وتقريره وفي القرآن العظيم والكلام الفصيح والأشعار منه كثير } (٢) .

وقسم بعض البلاغيين " مبالغات القرآن " قسمين :

- مقترنة بـ " كاد "

- غير مقترنة .

(١) المصباح / ٢٢٣

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب — لأبي عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدس ت ٦٩٨هـ المطبوع خطأ بعنوان : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان — لابن القيم الجوزية — تحقيق د. زكريا سعيد علي — مكتبة الخانجي بالقاهرة ت ط الأولى ١٤١٥هـ — ١٩٩٥م / ٤٠٦

مثلاً مرّ علينا من كلام " ابن قتيبة " (ت ٢٧٦هـ) : { وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بكاد ، فما لم يأت بكاد ففيه إضمارها كقوله :

﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ أي كادت من شدة الخوف تبلغ الطوق { (١)

كذلك قول " ابن أبي الإصبع " (ت ٦٥٤هـ) { وجميع مبالغات الكتاب على ضربين ضرب غير ممكن لا يأتي إلا مقترناً كما تقدم من قوله تعالى :

﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (٢) والممكن قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ سواءٌ ” منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ (٣) لما كانت ممكنة جاءت المبالغة فيها غير مقترنة ، لأنها في هذه الآية عرفية ، معنى الكلام فيها " أن علم ذلك بالنسبة إلينا هو متعذر علينا " وسهل " بالنسبة إلى علم الله - سبحانه - فالمبالغة فيها إذا بالنسبة إلينا لا إلى الله - عز وجل { (٤)

وبيّنتُ من خلال " البحث " أن " مبالغات القرآن " أشمل من ذلك ، فهي في الصيغة وعن طريق أدوات كثيرة وليس " كاد " فقط ، وفي الأسلوب ومن خلال التصوير .

والخلاصة : أن " مبالغات القرآن " انقسمت قسمتين :

الأولى : أن جميع " مبالغات القرآن " حسنة مقبولة .

الأخرى : جميعها - كما سألين - من جهة المتلقي .

مبالغات القرآن والتلقي :

في تعليق " ابن أبي الإصبع " السابق بيان " أن " المبالغة " بالنسبة إلينا لا إلى الله - عز وجل ، فالأمر سهل على الله - سبحانه ، متعذر علينا ،

(١) تأويل مشكل القرآن / ١٧١

(٢) النور / ٤٣

(٣) الرعد / ١٠

(٤) بديع القرآن - ابن أبي الإصبع ت ٦٥٤هـ - تحقّق حنفي محمد شرف - نهضة مصر - لا تاريخ / ٥٧

وأكدَ هذا القول " الزركشي " (ت ٧٩٤هـ) : في تعليقه على الآية نفسها : { وهي بالنسبة إلى المُخاطَب ، لا إلى المُخاطِب ؛ معناه أن علم ذلك متعذر " عندكم ، وإلا فهو بالنسبة إليه - سبحانه - ليس بمبالغة } (١)

فعلم الله - عز وجل - محيطٌ شامل ثابت ، وصفات الله متناهية الكمال لا زيادة فيها ولا نقصان ، وربما يأتي الكلام بالكثرة للتقريب والتمثيل تيسيراً على أفهام البشر كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ آبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (٢) .

{ قال المفسرون : والغرض من ذلك الإعلام بكثرة كلماته ، وهي في نفسها غير متناهية ، وإنما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى ، لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة .

وقال بعض المحققين : إن ما تضمنت الآية أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفد ، ولم تقتض الآية أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقلام والبحور وكما قال الخضر عليه السلام : ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من ماء البحر حين غمس منقاره فيها { (٣) والأصل أن علم الله لا ينقص ولكنه مثل " تقريبي .

كذلك " المبالغة " في أسماء الله الحسنى ، إنما تأتي من جهة تكثير المتعلق (٤) لا من جهة تكرير وقوع الوصف ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥) قال أبو حيان : { فجاء " التواب " على وزن فعَّال ، و " الرحيم " على وزن فعيل ، وهما من الأمثلة التي صيغت للمبالغة ، وهذا كله ترغيب من الله تعالى للعبد في التوبة ، والرجوع إلى الطاعة ، وإطماع في عفوه تعالى ، وإحسانه لمن تاب إليه " التواب " من أسمائه تعالى وهو الكثير القبول لتوبة العبد ، أو الكثير الإعانة عليها { (٦)

(١) السيرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ت ٧٩٤هـ - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار التراث - ط الثانية ٥٣ / ٣

(٢) لقمان / ٢٧

(٣) البرهان / ٣ / ٥٤

(٤) أبنت هذه النقطة في الفصل الرابع مبحث " أسماء الله الحسنى " بشيء من التفصيل .

(٥) البقرة / ٢٧

(٦) البحر المحيط / ١ / ٢٢٠ ، وانظر المزيد في المبالغة في أسماء الله تعالى في مبحث الإعجاز الأخير .

وفي الإتقان : { قد أورد بعض الفضلاء سؤالاً على قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) وهو أن " قديرًا " من صيغ المبالغة ، فيستلزم الزيادة على معنى " قادر " ، والزيادة على معنى " قادر " محال ؛ إذ الإيجاد من واحد لا يمكن فيه التفاضل باعتبار كل فرد . وأجيب بأن " المبالغة " لما تعذر حملها على كل فرد ، وجب صرفها إلى مجموع الأفراد التي دل السياق عليها ، فهي بالنسبة إلى كثرة المتعلق لا الوصف { (٢) .

ومن هنا فإن إجراء المبالغة إنما يتم من قِبَل المتلقي ، لا من قِبَل الله — عز وجل — وفي هذا إغلاق لمن نفى المبالغة في القرآن بحجة أنها لا تجوز على الله تعالى .

ألفاظ دالة على المبالغة في أقوال المفسرين :

وأخيراً : ثمة ألفاظ دالة على المبالغة وردت في أقوال المفسرين عبّرت عن دلالات المبالغة ، فربما صرّح بها مفسّر ، وربما أشار آخر بهذه الألفاظ كناية عنها وهذه الألفاظ هي :

فَرَطٌ (٣) وإفراط (٤) وكثيراً (٥) وغاية (٦)

(١) البقرة/ ٢٨٤

(٢) الإتقان في علوم القرآن — الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — مكتبة دار التراث — القاهرة ٣/ ٢٨٤ .

(٣) في قوله تعالى : " كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً " يونس / ٢٧

قال أبو السعود : { لفراط سوادها وظلمتها } أبو السعود / ٤ / ١٣٩

وصرّح بها أبو حيان : { وهذه المبالغة في سواد الوجوه وقد جاء مُصرّحاً في قوله " وتَسود وجوه " { البحر المحيط / ٥ / ١٥٠

(٤) في قوله تعالى : { واخضض لهما جناح الذل من الرحمة } الإسراء/ ٢٤

قال ابن جزي : { ومن في قوله " من الرحمة " للتعليل أي من أجل إفراط الرحمة لهما والشفقة عليهما { التسهيل / ٢ / ١٧٠

(٥) في قوله تعالى : { إنما أنت من المسخرين } الشعراء / ١٥٣ ، ١٨٥

قال الزمخشري : { المُسخرُ : الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله } الكشاف / ٣ / ١٢٣

وصرّح بالمبالغة ابن جزي في التسهيل { من المسخرين : مبالغة في المسحورين } التسهيل / ٣ / ٨٩

(٦) في قوله تعالى : { أوجب أحدمكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً } الحجرات / ١٢ =

والشدة والقوة (١) والمستقصى (٢) ومتجاوز (٣) والتناهي (٤) ... الخ

== قال البيضاوي : { إسناد الفعل إلى " أحد. " للتعميم وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهية {
تفسير البيضاوي ٤١٧ / ٢

(١) في قوله تعالى : { وغلقت الأبواب } يوسف / ٢٣

" وتضعيف { غلقت } لإفادة شدة الفعل وقوته " التحرير والتنوير مجلد ٦ جزء ١٢ / ٢٥٠

(٢) في قوله تعالى : { يسألونك كأنك حفي عنها } الأعراف / ١٨٧

قال القرطبي : { والحفي : المستقصى في السؤال } تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٦٢

(٣) في قوله تعالى : { واتبعوا أمر كل جبار عنيد } هود / ٥٩

قال الصاوي على الجلالين : { قوله : " عنيد " : معاند متجاوز في الظلم } ١٨٦ ، ١٨٧ / ٢

(٤) في قوله تعالى : { إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين } الذاريات / ٥٨

قال صاحب القول الأسني : { المتين : يُعِيدُ في الله سبحانه : التناهي في القوة والقدرة } ٤٤٢ /